نقد الطاغية: نحو ضرورة الاختلاف وثقافة الهامش في كتاب "النقد المزدوج" لعبد الكبير الخطيبي مقاربة تفكيكية

Criticism of the tyrant: towards the necessity of difference and the culture of the margin in the book "Al-Naqd al-Muzdawadj" of Abdul Kabir al-Khatibi Decompression aproach

شيماء مباركية*

جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي

mebarkia-chaima@univ-eloued.dz

نوال بومعزة

جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي

naoual-boumaza@univ-eloued.dz

تاريخ الاستلام: 2024/09/12 تاريخ القبول 2024/11/11 تاريخ النشر 2024/12/17

ملخص:

عرفت مرحلة ما بعد الحداثة كشكل من أشكال التمرد على الواقع في مختلف مجالاته الفكرية والسياسية والاجتماعية وحتى الثقافية، على اعتبار أن ما قبلها خلف العديد من المعتقدات البالية التي ظلت راسخة في الذهنية الغربية والعربية على حد سواء، فقد أقدمت الميتافيزيقا الغربية على حجب الآخر تحت مسوغات الأنا والعقل وقوانين اللوغوس المتغطرسة، وقد كان منطق المركز الذي يزج الإنسان في سجن التيه مبدأ تعتمده الثقافة الغربية منذ الأزل وإن صح التعبير منذ الحضارة اليونانية مرورا بعصر الكنيسة وصولا إلى مرحلة الحداثة، يأسر الإنسانية في برجها العاجي لردح طويل من الزمن، إلى أن

* المؤلف المراسل

انتفض الفكر وتفطن إلى ضرورة زحزحة اللوغوس كأولى ردات الفعل التي انتهجتها ثقافة الهامش في العصر المعاصر كرد فعل مباشر ورغبة في اكتساح عالم المركز وتشتيت تكتلاته. وعليه: إلى أي مدى تمكنت ما بعد الحداثة من إعادة صياغة العالم وبلورته بحلته الجديدة التي تتحدى مقولات الحداثة؟

الكلمات المفتاحية: ما بعد الحداثة؛ نقد الطاغية؛ التنوع الثقافي؛ التشتت؛ عبد الكبير الخطيبي.

Abstract:

Postmodernism is seen as a form of rebellion against the reality in its various intellectual, political, social, and even cultural sides because what had been prevalent before had left many bad beliefs that kept installed in the Western and Arabic minds. The Western metaphysics hid the other under the ego, the mind, and the oppressing laws of logos. The logic of the center that drove man to a labyrinth has ever been the principle of the Western culture starting from the Greek Civilizations, passing by the era of the church, till modernism. It imprisoned the humanity in its ivory tour for a long time until the thought had rebelled and figured out the necessity of throwing down the logos as the first reactions of the culture of the margin in the contemporary era to penetrate the center and dismantle its coalitions. Thus, to what extent did postmodernism manage to reformulate the world in its new shape that challenges the modernist thoughts?

key words postmodernism; cultural diversity;, criticism of the tyrant; dispersion;Abdel-kabir elkhatibi

مقدّمة:

شهدت بداية هذا القرن نزعة نقدية احتوت العديد من الاستراتيجيات الفلسفية المركبة التي سعت جاهدة إلى القضاء على الوثوقية الغربية التي توارثها العالم منذ نسق الميتافيزيقا والتمركز حول الذات؛ فقد كانت حضارة غربية عريقة تدعي امتلاك الحقيقة بصورة تجذرت إلى أعماق الثقافة العربية، كصورة لحضارة مقابلة لها متأثرة بالطرح الغربي منذ الإغريق، لذلك حاولت هاته التيارات النقدية ما بعد الحداثية العمل على زحزحة

أسس المركزية الغربية في مختلف امتداداتها ومقوماتها، والثورة عليها على اعتبار أن:« ضرورة الإزاحة تمليها تاريخية وجودنا الراهن الذي هو في أمس الحاجة لمثل هذه التثويرات الفكرية كجملة طفرات و انتقالات و إزاحات تمتحن الذات أمام ذاتها و تاريخها و أغيارها بقدر ما تحدد الحاضر الحي بكل معضلاته و ملابساته »[1]، وآية ذلك أن الحقيقة التي أفرزت قبل هذا العصر لم تعد كافية لإقناع الراهن بمختلف ملابساته ومتطلباته الاجتماعية والثقافية والفكرية..، لذلك أثرت التحولات التي لحقت بالعالم في شقيه مؤخرا على الفكر والواقع وكذلك الذات، التي باتت تعيش نوعا من الاغتراب تجاه الحاضر وما طرأ عليه من تغيرات، تندد بضرورة التغيير واستقبال التنوع الثقافي كحل جذري لمشكلات هذا الكائن، ومن ثم محاولة توليد استراتيجيات قادرة على استيعاب التضخم الفكري الماورائي الذي عرف عند الغرب منذ سلطة الكنيسة، التي اعتبرت الخروج عن قوانينها العظمى جرائم شنيعة في حق الدين كسلطة مباشرة لا ينبغي تجاوزها:« وبينما ننسب ظهور الفلسفة الأولى إلى أفلاطون في حين تنتسب ظهور الفلسفة الثانية إلى عصر النهضة، حيث وضعت مبدأ السلطة نفسها التي ينبغي أن ينقاد إليها الإنسان وليس سلطة الكنيسة والإقطاع الطبقي فحسب، وهو ما يضع محل التساؤل وجوب انقياد الإنسان إلى المثل والنماذج والقوى السائدة، أم عليه أن يختار وجهته من تجربته الذاتية وخبرته المتجددة ومعاناته الدؤوبة»[2]، فقد مثلت نوعا من التزمت الفكري المتعالي الذي يعمل على سجن الأنا وتطويق أفكارها وجنوحها نحو التنوع والاختلاف فما خرج عن سلطة السلطة فهو متمرد في زعم اللوغوس/السلطة/الدولة.

وبالتالي، فقد حاولت مرحلة بعد ما بعد الحداثة كإنتاج فكري متطور خلخلة هذا التضخم والمساس بكيانه المتعالي، للتخلي عن القداسة التي صنعها التاريخ الغربي، والقضاء على تجذراتها في الفكر والنقد على حد سوا، بعد أن حققت مرحلة ما بعد الحداثة نجاعتها في تحطيم الجداريات السميكة في الفكر والأدب والنقد خاصة:

(اللغة/المؤسسات الأكاديمية/السلطة/) وفتحت المجال أمام مرحلة جديدة قلبت الفكر الإنساني رأسا على عقب، بعد أن أحدثت تغييرات شاملة في مفهوم النظرية النقدية والأدب وحتى الفن باعتبارها ثوابت وجب إعادة النظر فيها نقديا حتى يتسنى للفكر أن يتقدم نحو فكر معاصر يستوعب متطلبات الراهن والذات. وعلى هذا الأساس هل استطاع حقا فكر ما بعد الحداثة صياغة نموذج جديد يواكب تغيرات الواقع الإنساني؟ وقد تم اعتماد التفكيك كإستراتيجية نقدية من إفرازات هذه المرحلة حتى يتسنى لنا مقاربة توجه فكر الناقد عبد الكبير الخطيبي و إدراك الأهداف التي يرمي إليها من خلال كتابه: النقد المزدوج

المبحث الأول: التنوع والاختلاف: الوجه الآخر للتفكيك:

يعتبر التفكيك قفزة نوعية في مجال النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة التي تمثل مرحلة انتقالية من مفهوم النسق إلى ما بعده، فقد عمد جاك دريدا إلى فتح النص على تعدد الدلالات التي تمنح له في مرحلة لاحقة صفة الدلالة العائمة التي لا تقف على معنى المدلول الواحد، بل تتعداه إلى انفتاح لا مشروط على توالد المعاني وتواليها، وبذلك يطبق التفكيك مقولاته المختلفة على النص الأدبي والنقدي على حد سواء، ومن بينها كتاب النقد المزدوج للخطيبي الذي يقدم فيه نقدا لاذعا للعقلية العربية، ويقوض من خلالها مفهوم النسق السلطة الذي بات يهيمن على النص في مرحلة أولى، والنقد والفكر في مرحلة لاحقة، وعليه فقد احتوى هذا المبحث على تقديم مفهوم عام للتفكيك، وكيفية ممارسته على النص النقدي، انطلاقا من تقويض سلطة اللوغوس وتأييد سلطة الهامش في مختلف مجالات الراهن.

1.2 المطلب الأول: التفكيك شبح الحقيقة

يعمد صاحب المشروع التفكيكي "جاك دريدا" في مرحلة ما بعد البنيوية إلى التعريف بإستراتيجية نقدية جديدة تهز كيان النسق المحايث إلى:« صوغ آليات متعددة

المستندات و الوسائل لتفكيك ما يسميه "النزعة المتمركزة على العقل" التي ميزت الفكر الأوروبي...»[3]؛ الذي أرخ له بالورقة التي قدمها في جامعة جونز هوبكنز الأمريكية في الندوة التي أقيمت حول موضوع""اللغات النقدية وعلوم اللسان عام 1966 تحت عنوان"البناء والعلامة واللعب في خطاب العلوم الإنسانية" مستلهما جوانب من فلسفة نيتشه وفرويد وهيدجير ولغويات دي سوسير، ضمت الندوة مجموعة من النقاد أهمهم: رولان بارت، تودروف، جاك لاكان وغيرهم أن يزحزح الثابت ويخلخل مركزية الذات، ويمحي الخطوط التي تفصل ثنائية الأنا عن الآخر، التي تعتبر خطوط وهمية رفيعة صنعتها الثقافة الغربية الأوروبية نفسها لتكسب المشروعية على الثقافات المقموعة وتسلبها حق الكلام، ثم زعزعة أشكال البقاء السوسيولوجية كالأصل والغة والدين والهوية بواسطة عمل دقيق من الإزاحة والزحزحة، ف:« منطق الإزاحة كعملية تقليب وتحويل، بمعنى تحريك الثوابت الراسخة و الماهيات المتجذرة والتي تتحول تحت وطأة التصنيم والتقديس إلى أنسجة لغوية مخرومة و أنساق فكروية بالية »[4]، فكرة النسق الزئبقية التي تبلورت من وعي بائس يسطو على العالم بشقيه الغربي والعربي، وتأسست بقوة عبر إيديولوجيا عابثة هشة تفضي إلى العتمة المعرفية. فقد زحفت التفكيكية كإستراتيجية تقويمية ابستومولوجية إلى العالم العربي، إذ نجد أن:« أعمال عديدة تحيل نفسها اليوم إلى مؤلفات دريدا،...وفي الحال الراهنة لا يتعلق الأمر بموضة، ولا باقتحام منهجي كما كان الشأن بالنسبة للبنيوية،وليس كذلك بالاستخدام النضالي، وذلك دون شك لأن هذا الفكر يقلق الوعود بالانعتاق، ويفكك مسلماتها و بداهاتها، ويبدو أن حالة القهر تفرض عمل فسخ حذر للنسيج الميتافيزيقي و الانتروبولوجي الذي يتورط فيه ذلك العالم...»[5]،لأنه فكر يناهض المركز والأصل ويدعوا إلى التعدد وقبول الآخر المختلف بالضرورة، فالتفكيك شبح يزرع القلق في جوف تلك البنى المنغلقة على ذاتها منحصرة داخل منظومة واحدة لاهوتية متعجرفة.

وعلى هذا الأساس فقد مثل التفكيك قفزة نوعية تزحزح الراسخ والمعتقد، إلى ضرورة أخرى يمثلها بروز الهامش، فهذا السبيل النقدي يسعى إلى قراءة النصوص بأسلوب مغاير لما فرضته سلطة النسق المغلق الذي حصر المعرفة في برج عاجي، أقصيت فيه الكثير من جوانب الأدب والفن والثقافة على حد سواء، فإستراتيجية التفكيك تسعى إلى صوغ آليات نقدية جديدة تتجاوز مفهوم النسق/النظام إلى التعددية القرائية وفتح المجال أمام التعدد والتثاقف ومحاربة الأنا التي رسخت مفاهيمها منذ بداية الفهم والإدراك.

المطلب الثاني: التفكيكية وسلطة الهامش

يرمي هذا الطرح إلى تبيان مدى قدرة إستراتيجيات هاته المرحلة على مقاربة قضايا الراهن العربي، إذ تؤمن قطعا بضرورة الانفتاح وتلاقح الثقافات كتمهيد أساسي لزحزحة الطاغية من جهة، ومن جهة أخرى القضاء على مفهوم السلطة في مختلف امتداداته التي ساهم الزحف الكولونيالي في إعادة بعثها ومن ثم خلق طبقية اجتماعية تولد عنها الأصل والفرع، يقول حسن حنفي: « ففي عنفوان المد الاستعماري الأوروبي و النزعة العرقية ظهرت المذاهب التركيبية الشامخة، في حين يظهر التفكيك في عصر تحرر الأطراف من الاستعمار وتفسخ المركز»[6]، وعليه، ظهرت الكثير من الدراسات والمعارف ما بعد الحداثية: النقد الثقافي والتفكيك وحركات التحرر أو ما بعد الكولونيالية التي عانت التهميش في ظل الميتافيزيقا العمياء التي سيطرت على العالم في مختلف المجالات، تلك التي أعلنت إفلاسها أمام الإستراتيجية التفكيكية التي تهجس بالآخر المهمش، ثم فرضت مراجعة الفكر الأوروبي لنفسه والتخلي عن مبدأ السيد والعبد. فقد صار:« ما هو متناثر،ومتناتل، وجزئي، محور القراءة الفلسفية والخطاب الفلسفي، ولهذا السبب سقط المركز الذي يستقطب الأشياء، وسقط معه ما كان قبليا وأساسيا، ليصير شظايا تحمل في أعماقها بقايا من كل مكان، تمثل دراستها ضربا من الحفريات المعرفية، أو التنقيب المعرفي عن كوامن الماضي والتجارب المتراكمة في الأجزاء، ما يجعل كل جزء منها

وحدة قابلة للدراسة المستقلة»[7]، فقد رفض التفكيك مثلا كتحول من تحولات هذا العصر رفضا قاطعا مبدأ الكليات وفتتها إلى مالا نهاية حتى لا تتكتل مجددا وتكون طاغية مرة أخرى، ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بالوقوف على تلك الكليات والطعن في حقيقتها بمبدأ الاختلاف الذي يعبر في جوهره عن ضرورة الانفتاح كضرورة لابد منها لاستكناه خبايا الراهن وقطع الصلة مع الأصل (الطاغية)، ومن ثم إفساح المجال أمام الثقافة المضادة، والانصهار معها لتكوين ذات مريدة تشكك وتناقض في مفهوم الحقيقة، فالهامش الذي خلقه المركز لن يكف عن البزوغ والمجيء والاندفاع نحو المستقبل لاشراقة تفكيكية متواصلة تشتت مخلفات الفلسفة اليونانية التي بثت في بادئ الأمر مفهوم المركز والأصل، وبالتالي خلق فجوات ثقافية ظلت صامدة في مواجهة الاتجاهات السلطوية بمختلف تمظهراتها.

وفي هذا الصدد، توجه العديد من الباحثين إلى ممارسة هذه الإستراتيجية على العالم العربي أمام هذه الخطابات المستلبة السلطوية و مسائلة هذه الوضعيات السوسيولوجية الكولونيالية التي قيدت الذات بلغتها ومجتمعها وثقافتها وعلاقتها مع الآخر، وحوطتها في ما تطلق عليه جبروت التاريخ :« تضمنت أعمال العروي جهدا كبيرا في باب نقد الثقافات السائدة... ولعله انتقد بكثير من العنف كل الثقافات التي كانت تستند في مرجعيتها إلى التراث والتقليد،...ذلك من أجل الدفاع عن اختيارات في الفكر تنحو منحى أكثر راديكالية»[8]، ثم يدعو إلى إعادة التفكير في التاريخ الذي ولده الحضور الكولونيالي وجعله مقدسا في العقيدة العربية.

المبحث الثاني النقد المزدوج: نقد الطاغية وتعزيز ثقافة الهامش

يحتوي هذا المبحث على مقاربة تطبيقية على كتاب نقدي مغربي عنون ب: النقد المزدوج للناقد العربي عبد الكبير الخطيبي، إذ تسعى هذه المقاربة إلى تفكيك مفهوم اللوغوس ونقده، ليحل محله الهامش الذي يتوارى في النص الأدبي ويتمظهر مع هذه الممارسة

النقدية ما بعد الحداثية، ففي هذا المبحث يتضح تأييد الخطيبي لمفهوم الاختلاف، والقضاء على سلطة الواحد والأوحد، التي جعلت العالم يعيش في برج عادي أكل فيه القوي الضعيف، ويتسلط فيه الغرب على العرب، فيؤدي ذلك بالضرورة إلى حتمية طبقية قسمت هذا الراهن إلى سلطة وهامش يتصارعان في حلقة لا نهائية من التمايزات والتناقضات.

المطلب الأول: المقاربة التفكيكية في البيئة العربية:

بعد أن شاع مفهوم التفكيك في العالم العربي متأخرا على ظهوره في بيئته الأصلية (الغرب)، فقد سارع العديد من نقاد العرب إلى تبني هذا الاتجاه النقدي ومحاولة تطبيق آلياته الإجرائية على النصوص العربية والممارسات الثقافية وحتى السوسيولوجية منها،وعليه يمارس عبد الكبير الخطيبي المشكك السقراطي مشروعه السوسيوتفكيكي على المغرب بوصفها جزء من الثقافة العربية وصورة من صورها، إذ يعتقد أن الثقافة العربية في أصلها قد تشتتت واهتزت معالمها بفعل الكولونيالية الاروبية التي هيمنت ثقافيا، ودست سمومها في صلب هاته الثقافة فحرفت مبادئها وقوضتها.

إذ يعتقد الخطيبي في بداية الأمر أن المنظمة الخلدونية في العالم العربي مثلت سلطة بطرياكية كلية يغلب عليها الطابع الغربي وإيديولوجيا التمركز التاريخي لا تختلف عن نظيرتها الغربية في صورة الأب والطاغية، فقد حوطت العالم العربي وهمشت الثقافة على اعتبار أن منظومة ابن خلدون أساس الفكر والمعرفة. يقول شوقي الزين:« اللحظة البطريركية أو الأبوية زادت من سطوة الرقابة وهيمنة القرابة بانتفاء الحس النقدي وأفول الرؤية العميقة الملتمسة للآفاق الواسعة والأعماق الغائرة. اللحظة الأبوية في الثقافة والفكر والسياسة ختمت على العقول بقدر ما حجبت الرؤى وجعلت الحاضر سجين الماضي و رهين الإنشاءات المنمقة و التأسيسات الهشة. اللحظة الأبوية أرادت أن تكون الراعي الذي يسهر على سلامة قطيعه»[9]، فالخطيبي يود عبر نقد مزدوج أن يزعزع هذه

النزعة الشمولية الأبوية التي ترى نفسها وصية على الفكر والمعرفة وتربط الخطاب بالوعي التراثي والنزعة التخديرية الطقوسية التي نتجت عن التكاسل والخمول العربي وتبعد الآخر على اعتبار أنه يمثل تنافرا ثقافيا لا يمكن أن يبسط رحاله في خضم ثقافة عربية محافظة، يقول:« و السوسيولوجيون العرب والمستشرقون يستعملون غالبا مفهوم العصبية المأخوذ عن ابن خلدون. لكن هذا المفهوم يتضمن رؤية دورية للتاريخ، رؤية العودة الأبدية،...لا شك أن التاريخ، كممارسة وكمعرفة، لا ينجو في بلادنا من صبغة الصنمية، أليست كثرة الكتابات الطفيلية التي تناولته تعبيرا وحشيا عن إثبات الهوية؟ »[10]، فالعصبية للثقافة والقبيلة واللغة والدين والهوية جعل من العالم العربي صنما لا يتلاقح مع الآخر ولا يعترف بثقافته في حين وجب على هاته الثقافة المنغلقة على ذاتها أن تتخلى عن النمطية في السوسيولوجيا والابستومولوجيا على حد سواء لأنها تخفي وراءها ميتافيزيقا الكلية التي تهمش بطريقة أو بأخرى جزءا من الثقافة وتلغي وجوده.

المطلب الثاني: النقد المزدوج وحتمية الاختلاف الثقافي الكوني

تفترض إستراتيجية الخطيبي الدريدي فكرة أن كل سوسيولوجيا ترضخ لإيديولوجيا موازية لها، هاته الصدمة الهيومانية العربية التي لبثت ردحا من الزمن حتمت دخول الآخر الذي لطالما رفضته ليخلصها من شقاء الوعي بين الأنا والآخر، ثم يفكك هويتها و يتنصلها بقوة:« إن المناضل الطبقي، إذن، عنصر تفجير لتقديس الكلية والوحدة التي تؤدي بالإنسان إلى الإصابة بعصاب "الهوية العمياء" و"الاختلاف الوحشي".إنه جسد بدءا ينتج في دواخله عناصر المقاومة التي تؤهله للانفلات من أية إرادة للهيمنة أو للانخراط من المألوف السائد...لأن الانجذاب إلى المؤسسة-كيفما كانت- اعتراف بالقيم السائدة ورضوخ اجتماعي و سياسي، ومن ثم يجسد المناضل الطبقي، ككائن يتيم، هوية مختلفة متعددة وانفصالا عن منطقة "الهوية العمياء " ...»[11]، فقد آمن الخطيبي بفكر الاختلاف كما آمن بطرح دريدا الذي لاذ إليه على اعتباره طيفا

يتواجد أينما تواجدت النرجسية ليقضي على فكرة الأحادية ويمهد لطرح جديد يقوم على المتناقضات والثنائيات الضدية والاختلاف،فدريدا ينبه لخطر استبعاد الآخر الذي بالضرورة سيبرز معلنا عن نفسه مناظرا للآخر ومعاديا له، لأن صورة الآخر تنعكس في ذواتنا وواقعنا لأنه يعتبر في حقيقة الأمر عنصرا حاسما في كيان المعرفة والمجتمع، وضرورة التخلي عن الذاتية الحمقاء؛ فقد لاحظ أن المغرب يعيش طوباوية راهنة بقوة في جميع أنحائه ومجالاته(الدين،العادات،والسلطة،...) لذلك اعتمد التفكيكية على اعتبارها إستراتيجية فلسفية تقترح قراءات مفتوحة يدخل عبرها في لعبة صراع فكرية حية ضد قيم المجتمعات العربية والمغربية التقليدية تطرح السؤال بغرض إثارة الإشكالية حول فكرة الأصل(الثابت) الذي يتنكر لجدلية الخصوصي والشمولي، جدلية الأنا والآخر، والهوية والاختلاف.

ذلك أن:« ورشة التفكيك الهائلة المعلنة عن نفسها في هذا السياق لا تتكفل بذاتها فحسب، بل تساهم في صيرورة عالمية »[12]، فيعتقد الخطيبي أن تجاهل الاختلاف بين العرب والغرب هي الظاهرة التي يعاني منها العالم العربي ألما مريرا، ثم يعلن نهاية الميتافيزيقا من خلال سوسيولوجيا تأملية فلسفية تزرع الشك:«إن إستراتيجية التفكيك تنطلق من موقف فلسفي مبدئي قائم على الشك، وقد ترجم التفكيكيون هذا الشك الفلسفي نقدا إلى رفض التقاليد، رفض القراءات المعتمدة،...» [13]، هذه النزعة الابستومولوجية التي اعتمدها الخطيبي تتعلق بخلخلة ميتافيزيقا الحضور والتمادي عليها، وتطرح أسئلة نقدية تقويمية على تاريخ الإنسان الغربي الذي يعيش في مثالية تراثية قبلانية مثيرة للسخرية،تحت وطأة السلطات المتغطرسة: العقل، اللغة، الجامعة، وحتى على السؤال ذاته. ثم على العالم العربي أيضا الذي أخضعه الخطيبي للدراسة والتحليل فهو الآخر يعاني مثالية صماء توازي المثالية الغربية أو تفوقها زيفا.

يسعى الخطيبي أن يصوغ إستراتيجيته الخاصة "السوسيو تفكيكية"على العالم العربي من خلال الثورة على المفاهيم البالية والعمل على تحرير صرامتها، والتأسيس لطرحه بعيدا عن الينبوع الفلسفي الكلاسيكي، الذي راح يفتت مقوماته ويشتتها ويثبت هشاشته ثم يضرب خلفياته، ويزعزع خلفياته الفكرية الراسخة:« تروم هذه الإستراتيجية قراءة الفكر الغربي قراءة شاملة وإعادة النظر في المفاهيم التي تأسس عليها الخطاب الميتافيزيقي[الحقيقة والعقل و الهوية والحضور والأصل...]، هي عبارة عن نقد للتمركز العرقي الغربي المدعم من طرف تمركزات أخرى مثل تمركز العقل وتمركز الصوت وتمركز القضيب...»[14]، فالخطيبي بدوره ينقد المتعاليات النرجسية العربية (التراث ميتافيزيقا تربط الانسان بالآلهة منذ نشأة الفكر)، عبر تطبيق إستراتيجية تفكيكية عربية:« نقد المقاربات الاثنولوجية التي تتعامل مع الثقافة الشعبية تعاملا خارجيا و متعاليا» [15]، في حين وجب عليها التعايش السلمي وتقبل الاختلاف الهوياتي:«...إنه يريد أن يخترق الحاجز، يساءل الهوية والأصالة المزعومتين، يتدخل في براءتهما الوهمية، يخلخل سكونية المعرفة، يبين إلى أي حد ظل اسمنا العربي معلقا،...بين سلطة الكتابة وسلطة الدولة »[16]، فالنقد المزدوج سعى إلى إعادة بناء وتشييد بنيان العلوم الاجتماعية ويؤسس للامركز وينزع الامتياز عن التاريخ الذي يقف في وجه المعرفة الراهنة.

اعتمد الخطيبي على القلب المفهومي الدريدي، إذ دافع بقوة عن الثقافة الشعبية التي همشتها الدراسات الأكاديمية(الجامعية) في المغرب ليجعل من الهامش مركزا، إذ اعتمد مبدأ الهدم والتقويض على المفاهيم البالية (العادات والتقاليد، الدين الهوية،اللغة، التاريخ والتراث...)، التي تستغلها السلطة للسيطرة على الشعب وتقمع حرياته وتتعالى عليه باسمها؛ فعبر التمرد الدريدي تمرد الخطيبي على النظم الاجتماعية في المجتمع المغربي، وطالب بالحقوق المدنية للمنبوذ والشاذ جنسيا، و المهمش والمعارض:«...بالنسبة للخطيبي، هناك فرق طبقي، فرق لغوي، فرق تاريخي، فرق جغرافي،فروق لا نهائية عمدت

الثقافة العربية الحديثة، أكانت سائدة أم في طريقها إلى السيادة، إلى قمعها»[17]، لينطق السكوت ويحرر قيد المسكوت عنه ويطلق له العنان ويعطيه حق العيش بسلام في خضم هذه الثقافة، إذ يطالب الخطيبي بمراجعة السلطة من خلال تقويض مبادئها وإثبات التناقض الذي يحكمها ليبرز الشرخ القائم بين الحاكم والمحكوم، ثم يزحزح المركز من عليائه ويوجه له ضربات متتالية في عمقه مثلما فعل دريدا مع الثقافة الغربية لغاية في نفس دريدا اليعقوبي أخفاها في نفسه ففضحتها إستراتيجيته الفلسفية:« يطالب الخطيبي بإعادة النظر المستمرة في أساسيات السوسيولوجيا الغربية، وكذلك في الفكر الاجتماعي الذي أنتجه الفكر العربي الوسيط أو المعاصر عن مجتمعه. من هنا ضرورة القيام بكتابة جديدة على مستوى الفكر الاجتماعي، كتابة نقدية غير مهادنة تتجه نحو محورين، يتعين إخضاعهما كموضوع للتفكيك داخل عملية الكتابة والتفكير»[18]،فاتفق كلاهما على إظهار الضجر والبغض للنظام والسلطة و السوسيولوجيا المفتتة، التي غرست أنيابها أقطار العالم العربي جراء الاستعمار، ويعيد الاعتبار للمهمش عبر معارضة برلمانية نقدية عسيرة الفهم لميتافيزيقا الحضور بمختلف تمثلاتها في العالمين والكف عن تقديس الغرب الذي ما فتئ يغلغل ثقافته في أعماقنا. يقول الخطيبي:« إن العالم العربي قد اهتز في نظامه وتصدع في كيانه الحضاري، فأصبح يعاني من تعددية شاملة، تتجلى في جميع أشكال المثاقفة و الاضمحلال و ليس هذا المسلسل في حد ذاته خيرا ولا شرا.إنه مسلسل تاريخي ينبغي أن يقوم بتحليله وتطعيمه عن طريق فكر قادر على تحليل الأوضاع المتعددة التي يجتازها العالم العربي»[19]، ليوضح التشتت والاختلاف الذي يعيشه المغرب، والتصدع الحضاري جراء المثاقفة من جهة و الكولونيالية من جهة أخرى، هذا الوحش الزاحف الذي نشر رعبه في بلدان العالم الثالث/المغرب وحط من قيمة المعرفة العربية فيرى أنها كتابة فنية تمارس التاريخ تأخذ قوتها من ارتباطها بالوقائع المادية والمؤسسات الاجتماعية؛ فهي ممارسة تأخذ على عاتقها التاريخ والإيديولوجيات والعلم،لذلك يجب الوعي التام بقيمة اللحظة الراهنة

وتحقيق قطيعة معرفية مع السيطرة الثقافية الغربية العنيفة على الثقافة العربية التي تنبجس فيها لتعيد تكوينها من الداخل وتجعلها بطريقة ما غريبة عن ذاتها، فالعالم العربي وجب عليه أن يحاول عدم إدراج الآخر ضمن مجال التفكير العربي الخاص ليتجاوز قصوره المعرفي:«...لقد كتب على العرب أن يعتنقوا النزعة التاريخية. و كان عليهم أن يعللوا انحطاطهم و توسع الغرب بالرجوع إلى قوانين التاريخ... »[20]، فالخطيبي يرجع انحطاط العالم العربي إلى التاريخ الوهمي الزائف الذي فتح الباب على مصراعيه لدخول الغرب إلى قلب العالم العربي، فمفهوم التاريخ مأسور في قلب الميتافيزيقا جعله ينتمي إلى الماركسية في أحد أشكالها الصارمة التي ترفض التاريخانية الإقطاعية وحكم المطلق(الله، القدر...)، كما ترفض تاريخية الفكر الليبرالي التي أوجدت بدائل المطلق في صورة مزيفة (العقل، الفرد). فجعلته يعيش شقاء الوعي التاريخي لا يعرف أين ينصب نفسه وأي توجه سيخوض؟.

يثبت الخطيبي تمزق السلطة وهشاشتها في بلاد المغرب التي بقيت تابعة للآخر صامدة بفضل الفكر الهيجلي الذي أسس لمملكة المعرفة المطلقة لردح من الزمن، ثم سيطرت التقنية على العالم "سيادة لا سيد لها". فرغم العداء والكراهية التي يكنها العالم العربي لأوروبا، لم يستطع التنصل من أثر النظام السلطوي الغربي عليه وخاصة في المغرب:« إن مغتابينا يعلمون هذا. إنهم يقصدون نقاطنا الهشة و الضعيفة. لماذا يحرمون أنفسهم من ذلك؟ ...»[21]، إنه لموقف مزدوج مزيف يريد الخطيبي استغلاله ليمارس بحثه السوسيولوجي بهدف تقويض البنى الغربية المتحكمة في المغرب التي لا تتغير إلا عبر مبدأي الفوضى والا تماثل لبناء سوسيولوجيا عربية بحتة.

يقوض الخطيبي المفاهيم البالية بكل ما تستتبعه ميتافيزيقا الحضور من دلالات معرفية، سلطوية، أو إيديولوجية التي يكذب بها المغرب العربي على نفسه ويستعملها سلاحا ضد شعبه من جهة أخرى ليفرض سيطرته، لذلك يثور ضد التراث العربي الذي يعتبره سببا في تراجع الأمم العربية التي استمسكت بعروة هشة، ويدعو إضافة إلى "عبلة

معاندي" إلى قراءة حفرية نقدية تهدم هذا المعتقد الميتافيزيقي الذي تمنع الانسان العربي من طرح السؤال الصائب على واقعهم ثم أنفسهم لتخترق سور الوهم الميتافيزيقي وتحقق معنى الاختلاف الذي ينادي به فلاسفة الاختلاف ومنهم دريدا والخطيبي نفسه الذي يرى أن معنى الاختلاف مكبوت منذ زمن طويل:« وحدها القراءة الحفرية النقدية...تسمح بالوقوف على طرائق تشكل المعنى التراثي، بها و من خلالها نستطيع النفاذ إلى تفاصيل المعنى التاريخي-لا المطلق-لمفهوم التراث في علاقته براهن الفكر العربي»[22]، فالتاريخ المزيف الذي يتحكم بصورة غير شرعية في الحاضر و يعرقل سير الحياة وتقدم المجتمع العربي وتطوره وفصله عن التبعية التي نصبت نفسها حكما على باقي دول العالم الأخرى(النامية)، والتأسيس لثقافة عربية بحتة تنفصم عن الآخر لتبني ذاتها وارتهانها، وتنقيبا في هذا الملف الشائك فهما ومراجعة ونقدا لمواكبة التغيرات الطارئة التي تقول بها ما بعد الحداثة كحركة تقوض الثابت الذي لا أساس لها من الصحة سوى العبث، فقانون الأنا التي تتنكر للتاريخ المظلم الذي يكبل جهدها، تلك التي جعلت العالم يعيش تناقضات حقة في مجتمعه ومع ذاته وتاريخه وهويته، رغم أن فكر الاختلاف أو التفكيك لا يقتل الآخر بل يعترف به ويحضر معه كمعنى موازي لا يغيب أثره، ولا يتنصل منه الريادة التي يزعمها الغربي دائما. والخطيبي يفكر في بناء حضارة لها كيانها بعيدا عن قالب الميتافيزيقا الذي أصبح يربط الخناق على رقبة هاتين الحضارتين الغربية والعربية معا: « لنأخذ الإنسان العربي، و على وجه التحديد الإنسان المغربي،فإننا نلاحظ أنه يحمل في أعماقه كل ماضيه ما قبل الإسلامي و الإسلامي و البربري و العربي و الغربي. أهم شيء إذن هو ألا نغفل هذه الهوية المتعددة التي تكون هذا الكائن...طالبوا بالهوية التعددية التي يقوم عليها كيانكم...فالمطالبة بالهوية التعددية تؤكد مفهوم الاختلاف ...»[23]، الذي حاول لاهوت أرسطو أن يزحزحه ليحافظ على ثقافة غربية مثالية سامية منعزلة تمثل مركز ثقل العالم وهويته الدائمة في الوجود إلى حين، وفي المقابل

الثقافة العربية كذلك وفي كل مجتمع على حده رغبة في التميز عن الآخرين وإن كان هذا الآخر هو الأنا ذاتها، يقول الخطيبي: «عندما نريد أن نتميز بأية طريقة عن الآخرين، فذلك يعود إلى أننا نريد أن نضع حدا بيننا و بينهم إذا لم نقل بأننا نريد أن نفرض سيطرتنا عليهم، أو على الأقل أن نفرض عليهم مبدأ التراتب. نحن ننطلق من فكرة أن التشابه بنية أولية و نهائية لكل مجموعة بشرية»[24] فعهد بناء النسق المومياء كما يقول دريدا قد ولى ومنطق الأحادية أفل منذ زمن حتى يحطم الاستقرار والبنى الشاملة، فدريدا :« الذي يعرض المفهوم أمامك فيبدو لك سويا، حتى إذا استقر في ذهنك هدمه هدما حتى ما يثبت في ذهنك شيئا»[25]، يقلق الهدوء ويهز الكيان ويزحزح الثابت هو التفكيك الذي يرجو من خلاله دريدا إلى زرع الشك في قلب كل شيء حقا :«إن منطق الباطني والجواني هذا هو ما يشكك فيه جاك دريدا ويدعو إلى تفكيكه،وذلك-في اعتقاده- بناء منطق الميتافيزيقا من جديد ذلك المنطق الذي تخترقه التعارضات : الداخل/الخارج، المعقول/المحسوس...فطريق المناصرة لا يستسيغه التفكيك، بل إن إستراتيجية التفكيك لا تناصر أبدا منطقا ضد آخر، ولا تقيم الطرف المقصي في تراتبية ميتافيزيقية معينة محل عرش الطرف المنتصر،بل هي تحاول وفق حركة نيتشية واضحة إقصاء المحل نفسه»[26]، فكل الذوات تحضر بنفس المستوى والقيمة ولا فضل لغربي على عربي بل و تحاول وفق مطرقة نيتشه تهشيم النسق ذاته الذي يبتغي التربع على العرش، عرش الميتافيزيقا الأبدية ليجد الفكر نفسه أمام العدمية والتشيؤ.

خاتمة:

لقد مثل الاختلاف حقيقة الوعي بالسؤال والماهية التي تخلص العالم شيئا فشيئا من وهم "الميتا" التي تعاطتها الثقافتين الغربية والعربية، وشيأت بها الإنسان وقتلت روحه،ميتافيزيقا تتصارع مع فيروس ينخر مبادئها ويهز كيانها " فيروس التفكيك الدريدي المعاصر"، فقد حاولت مرحلة بعد ما بعد الحداثة أن تصنع لذاتها عالما جديدا يناهض

كل ما يدعي السلطة وصولا إلى الانسان الذي وجد نفسه هامشا تحتل الآلة محله وتعمل عمله وتنشط عجلة الاقتصاد كغاية أولى ترقى فوق الذات نفسها التي باتت لا تعدو كونها فعلا أدائيا يصنع تكنولوجيا معينة وتقنية تتحكم في مصيره كما يعتقد ايشلمان، وتحول الاختلاف هو الآخر إلى لوغوس مادام تم تجاوزه في مرحلة سابقة —مرحلة ما بعد الحداثة.

سعى عبد الكبير الخطيبي إلى تعميم ثقافة الهامش على اعتبار أن الإنسان ذاته انزاح من كونه روحا إلى كونه هامشا لذلك من الضروري أن نعيد الاعتبار إلى هذا الهامش الثقافي أصل في بنية المجتمع حتى وإن كان هذا الأمر تأسيس إلى ميتافيزيقا لا نهائية تفرض ذاتها على الفرد والمجتمع وتتمثل في الواقع كشبح يطارد الاختلاف ويهدد كينونته.

يحضر التفكيك في حقيقة الأمر في كل الدراسات النقدية؛ ذلك أن التفكيك إيمان بالتعدد الدلالي ومن ثم الثقافي والفكري، الذي يفتح المجال أمام الناقد ليتحرر من مفهوم الدلالة الواحدة إلى الإيمان قطعا بمفهوم الدلالة العائمة التي لا تلغي حضور القراءة المتعددة وعليه لا يتم اعتماد الثقافة الواحدة كمنظور ثابت للتقدم والتطور العالمي، بل تمنح الفرصة لجميع الثقافات للبروز بنفس المستوى الذي تمثله الثقافات المتغطرسة في العالم "ثقافة الأنا".

الهوامش:

[1] محمد شوقي الزين، إزاحات فكرية، مقاربات في الحداثة والمثقف، منشورات الاختلاف، ط1،الجزائر،2005، ص09.

[2] طلعت عبد الحميد وآخرون، الحداثة.. وما بعد الحداثة دراسات في الأصول الفلسفية للتربية، مكتبة الأنجلو المصرية،دط، القاهرة، 2003، ص12.

[3] محمد نور الدين أفاية، في النقد الفلسفي المعاصر مصادره الغربية وتجلياته العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان،2014، ص84.

[4] محمد شوقي الزين، إزاحات فكرية ،مقاربات في الحداثة و المثقف، م س،ص09.

[5] م ن، ص 10.

[6] حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، ط1،القاهرة، مصر،1991،ص207.

[7] ديزيره سقال، في التفكيك، دط، 2018، ص08.

[8] كمال عبد اللطيف، أسئلة الفكر الفلسفي في المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2003، ص50.

[9] محمد شوقي الزين، إزاحات فكرية ،مقاربات في الحداثة والمثقف، م س، ص09.

[10] عبد الكبير الخطيبي، النقد المزدوج، منشورات عكاظ،دط، الرباط، فيفري2000، ص190-201.

[11] محمد نور الدين أفاية، في النقد الفلسفي المعاصر، م س، ص219.

[12] م ن، ص09.

[13] عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، عالم المعرفة، دط،الكويت، 1998، ص267.

[14] جاك دريدا، إستراتيجية تفكيك الميتافيزيقا حول الجامعة والسلطة والعنف والعقل والجنون والاختلاف والترجمة واللغة، تر:عز الدين الخطابي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2013، ص06.

[15] عبد الكبير الخطيبي، الاسم العربي الجريح، تر: محمد بنيس، منشورات الجمل،ط1، بغداد، بيروت، 2009،ص06.

[16] م ن، ص ن.

[17] م ن، ص 07.

[18] محمد نور الدين أفاية، في النقد الفلسفي المعاصر، م س،ص 225.

[19] عبد الكبير الخطيبي، النقد المزدوج، ص 11.

[20]م ن، ص 12.

[21] م ن، ص15.

[22] عبلة معاندي، القراءة الجابرية للتراث وسلطة البراديغم الحداثي ،جامعة عبد الرحمان ميرة، بجاية، مج 13، عدد1، ص15.

[23] عبد الكبير الخطيبي، النقد المزدوج، ص50.

[24]م ن، ص25.

[25] محمد الشيخ، ما معنى التفكيك" مشروع التفكيك لدى جاك دريدا: أصوله الفلسفية و ضوابطه المنهجية و تطبيقاته التربوية"، دار بدائل،ط1، الجيزة، مصر، 2014، ص24.

[26] م ن، ص81.